

الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري في العصر الشرقي القديم

قاسم طوير

المديرية العامة للآثار والمتاحف - دمشق

يعتبر التنقيب الأثري في تلال العصور الشرقية القديمة المنتشرة في منطقة الجمهورية العربية السورية حديث العهد بالنسبة للعراق ومصر . ففي حين أن النشاط الأثري قد بدأ في مصر مع حملة نابليون في القرن الثامن عشر ، وأخذ يخطو في العراق منذ القرن التاسع عشر ، نجد أن أول عملية تنقيب أثرية في تل ميسن العصور الشرقية القديمة في قطرنا قد باشرت بها بعثة المانية في عام ١٩١٠ .

وبالرغم من أن قطرنا هو واحد من أعرق مناطق الشرق أثريا بما كان وما يزال يتمتع به من موقع جغرافي يتحكم بطرق المواصلات بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، إلا أن تاريخه كان حتى عهد قريب يكتب من وجهات نظر النصوص المسمارية الرافدية والنصوص المصرية القديمة والنصوص العثية . وقاد هذا الأمر إلى اعتبار بلاد الشام تابعا للممالك المجاورة في الرافدين ومصر والآنضول . وربما كانت هذه النظرة أحد الأسباب التي صرفت في الماضي اهتمام علماء الآثار عن تركيز نشاطهم في قطرنا ، كما أنه لا يستبعد أن تكون التنقيبات الأثرية التي جرت بين الحربين العالميتين في بعض من تلال محافظة الجزيرة قد استهدفت بالمرجة الأولى استكمال بعض حلقات التاريخ الرافدي .

في الثلاثينات من هذا القرن حظيت المناطق الداخلية والساحلية باهتمام الأثريين الأجانب إلا أن التنقيبات التي جرت في خان شيخون وتل رفعت وتل المشرفة وتل النبي مند قد اقتصر على مساحات صغيرة وأعماق محدودة ، بالرغم من أن مكتشفات بعض منها قد عرفتنا على مملكة قطنه الامورية في تل

المشرفة وعلى مملكة قادش الشهيرة في تل النبي مند قرب حمص . بيد ان أهم نشاط اثري واسع النطاق وطويل الأجل كان في تل مدينة حماه وتل عطشانة في سهل العمق (الالاح القديمة) وتل الحريري (ماري) على الفرات وتل راس الشمرة (اوغاريت) على الساحل .

توقف النشاط الاثري في قطرنا عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية ، لكنه استؤنف في الخمسينات بعودة البعثين الاثريتين الافرنسييتين الى مواصلة التنقيب في كل من تل الحريري ورأس الشمرة . وكان لاكتشافات السجلات الملكية والمدينة (الرقم المسمارية) في تل الحريري والعثور على الابجدية الكتابية في رأس الشمرة اثر كبير على اوساط الاثريين في العالم . ولقد قاد هذا الامر الى توافد عدد من البعثات الاثرية الجديدة الى القطر خلال الستينات . ووصل النشاط الاثري في قطرنا الى ذروته في أعقاب النداء الدولي الذي أصدرته الجمهورية العربية السورية في عام ١٩٦٩ لحث المؤسسات الاثرية العالمية للمساهمة في انقاذ التلال والابواب الاثرية التي ستغمرها مياه سد الفرات . وبكل فخر يسجل قطرنا في الوقت الحاضر رقما قياسيا في عدد البعثات الوطنية والاجنبية العاملة في مختلف بقاعه .

وهكذا بدأت الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري وما تزال تؤسس تدريجيا وكأنها لوحة فسيفسائية ترصف بمكعبات صغيرة ، فكل عملية تنقيب في موقع جديد وكل اكتشاف فريد في المواقع التي يجري التنقيب فيها يضيف مكعبا او عدة مكعبات الى لوحة الفسيفساء تلك . وقبل الدخول في تفاصيل الشواهد المادية على تاريخ وحضارة قطرنا خلال العصور الشرقية القديمة نود التنويه الى ان عددا من التلال التي جرى التنقيب فيها قد زودنا بشواهد مادية حضارية ترقى الى الالف الاول والثاني والثالث قبل الميلاد ولكنها لم تزودنا الا بنصوص كتابية تغطي الالفين الاول والثاني . وبقي الظلام يكتنف تاريخ القطر السياسي والاجتماعي وواجه كثيرة من تاريخه الحضاري في الالف الثالث حتى عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ عندما سعدت البعثة الايطالية العاملة في تل مردوخ القريب من بلدة سراقب بالعثور على اعداد كبيرة من الرقم المسمارية التي تسطر احداث القطر خلال النصف الثاني من الالف الثالث .

يعتبر الالف الرابع بالنسبة للقطر العربي السوري اشد غموضا من الالف السابق لان الكتابة لم تكن بعد معروفة في تلك الفترة ، وكانت بوادر الكتابة في نهاية الالف الرابع تقتصر على رموز حسابية تطورت في جنوب الرافدين . بيد ان حضارة متطورة قد نشأت في مدينة اوروك - الوركاء - دلت نتائج التنقيب والمسح الاثريين على انتشارها في معظم بقاع الرافدين بما فيها منطقة الجزيرة في القطر العربي السوري لكن التنقيبات الاثرية الجارية في قطرنا لم تكشف دلائل هامة على هذا العصر الى الغرب من نهر الفرات حتى بضع سنين خلت ، وذلك

عندما كشفت بعثة اثرية المانية واخرى بلجيكية وثالثة هولندية عن مدينتين ازدهرتا على الشاطئ الشامي من نهر الفرات في اواخر الالف الرابع .

والان دعونا نستعرض مواقع التنقيب الاثري التي ننهل منها جل معرفتنا بالنسبة لكل عصر من العصور الشرقية القديمة .

نهاية الالف الرابع او عصر اوروك

يتمثل هذا العصر في موقعين رئيسيين على الشاطئ الايمن من نهر الفرات هما حوبة الجنوبية وجبل عارودة .

١ - **حوبة الجنوبية** : تقع حوبة الجنوبية على الشاطئ الايمن من نهر الفرات الاعلى وهي تابعة من الناحية الادارية الى ناحية الخفسة من منطقة منبج بمحافظة حلب ، ولما كان هذا الموقع من جملة المواقع التي ستفمرها مياه بحير سد الفرات فقد سارعت بعثة المانية اتحادية للتنقيب فيه منذ عام ١٩٦٩ الى جانب تل حوبة المجاور له في الشمال . ويمتد هذا الموقع مسافة حوالي الكيلو مترين على هضبة وادي الفرات وهو محصور بين تل حوبة في الشمال وتل قناص في الجنوب . ولقد أسفرت التنقيبات الجارية فيه بين ١٩٦٩ و ١٩٧٥ عن كشف أقدم مدينة متطورة في تاريخ قطرنا . كما أكدت نتائج التنقيب ان تل قناص الذي تعمل فيه بعثة اثرية بلجيكية على أساس انه تل مستقل ، هو جزء من مدينة حوبة الجنوبية ، بل هو مركز معابدها ويمكننا تلخيص نتائج التنقيب بالنقاط التالية :

٢ - ترقى حوبة الجنوبية الى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد وأكدت نماذج العمارة ، واللقي الفخارية والحجرية والطينية والنحاسية المكتشفة فيها على انتمائها لحضارة اوروك في جنوب الرافدين .

ب - تتمتع المدينة بتخطيط عمراني متطور ، فالشوارع المعبدة بالحصى تربط بين الأحياء وقساطل المياه المصنوعة من الفخار والمدفونة في الارض تتسلل في كافة البيوت وتلتقي في الشوارع وتصب خارج حدود المدينة .

ج - تتميز البيوت السكنية بتخطيط متقن فالغرف ترتصف حول باحة متوسطة او صالة كبرى ولعل من أبرزها هو البيت الكبير الذي تتوسطه صالة كبرى على شكل حرف (تي) اللاتيني ، وتزدان جدرانها بمحاريب غائرة .

د - يحيط بالمدينة من كافة جهاتها باستثناء الجهة المطلة على الفرات ، سور مزدوج ، الامامي منه صغير والخلفي هو الرئيسي ، ويتميز بسماكنه وبابراجيه المربعة التي تعززه بمسافات منتظمة ، وتخترق السور بوابتان ضخمتان . وخلافا للاسوار الدفاعية الخالية من اي تفصيل يتمتع سور مدينة حوبة الجنوبية بمحاريب منتظمة تضيي الحوية والرشاقة على سطوح الجدران الصماء . لعل هذا السور هو أبرز وأعظم كشف أثري تحقق حتى الان اذا علمنا ان التنقيبات الاثرية في موقع اوروك لم تكشف حتى الان عن السوية الترابية التي تغيب في باطنها سور اوروك الذي تحدثنا عنه اسطورة جلجامش الشهيرة . وبذلك سيفخر قطرنا بأنه قدم أول نموذج ملموس لعمارة الاسوار في نهاية الالف الرابع قبل الميلاد .

هـ - كانت البعثة الاثرية البلجيكية العاملة في موقع تل قناص المجاور تعتقد انها كشفت في هذا التل عن معالم مدينة من العهد البابلي ومن عصر اوروك وكانت فخورة بكشفها عن معبدتين من طراز معابد اوروك لكن البعثة الالمانية في حوبة الجنوبية فوجئت باستمرار سور حوبة نحو الجنوب وتخطيه حدود تل قناص بمسافة بعيدة . وهكذا تأكد أن تل قناص الذي يضم معبدتين رئيسيين من عصر اوروك هو جزء من مدينة حوبة .

و - الى جانب الاواني الفخارية المتنوعة والمميزة لعصر اوروك عثرت البعثة الالمانية على عدد كبير من الكتل البيضوية الشكل والمقوبة من طرفيها وتحفظ كافة هذه الكتل بطبعة ختم اسطواني زاخر بالاشكال الحيوانية والانسانية المحفورة حفرا دقيقا وماهرا . وكانت هذه الكتل تستخدم لغلاق فوهات الاواني المعبأة بالبضائع السائلة والجامدة وكان يجري مهر تلك الكتل بخاتم صاحب البضاعة كما هو الحال في يومنا هذا بالنسبة للشمع الاحمر .

ز - ان المكان لايتسع لذكر كافة الشواهد المادية المكتشفة في حوبة والتي تعرفنا على أوجه عديدة من أوجه حياة وفعالية تلك المدينة السحيقة في القدم .

٢ - **جبل عارودة** : تقوم بعثة اثرية هولندية منذ عام ١٩٧٣ بالمساهمة في حملة انتقاذ اثار الفرات في موقع جبل عارودة الذي يقع على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال من موقع حوبة الجنوبية . وكشفت هذه البعثة عن مبان دينية ومدنية وادوات فخارية وحجرية ورقم طينية (ارقام عديدة) مميزة لعصر اوروك . بيد ان التنقيبات في هذا الموقع ما تزال حديثة العهد . ونتوقع مزيدا من الاكتشافات التي توضح لنا صورة هذا الموقع والدور الذي كان يلعبه على مرتفع عال وصعب المسالك مثل جبل عارودة الذي يهيمن على وادي الفرات في تلك المنطقة .

النصف الاول من الالف الثالث او عصر السلالات الاولى

ان الشواهد المادية والكتابية على هذه الفترة بالنسبة لقطرنا مازال ضعيفة وتقتصر على بقايا معمارية ونماذج فخارية باستثناء مكتشفات البعثة الالمانية في تل خويرة في الجزيرة العليا والبعثة الفرنسية في تل الحريري (ماري) على الفرات الاوسط . ومن اهم المواقع التي ابان التنقيب الاثري عنها شواهد مادية على هذه الفترة نذكر :

٢ - تل براك :

يقع هذا التل على اطراف نهر الجفجف رافد نهر الخابور في الجزيرة ويبعد حوالي ٣٠ كم الى الجنوب من بلدة القامشلي . قامت بعثة اثرية بريطانية برئاسة العالم مالاوان بالتنقيب فيه بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ وكشفت عن بقايا معبد يرقى الى عصر جمدة نصر (حوالي ٢٧٠٠ ق.م) وعثرت فيه على عدد كبير من الدمى الفخارية والحجرية المميزة لهذا العصر . كما تم الكشف عن معالم قصر يرجح ان يكون للملك الاكادي تارام - سن .

ب - تل شغرباز :

يقع الى الجنوب من بلدة عامودة في الجزيرة . وقامت بالتنقيب فيه البعثة السابقة التي نقتبت في تل براك ولقد كشفت الاسوار العميقة فيه عن طبقة تعود الى عصر جمدة نصر ايضا .

ج - حماء :

قامت بعثة اثرية دانماركية بين ١٩٣١ و ١٩٣٨ بالتنقيب المنهجي الواسع في تل مدينة حماء وكشفت عن شواهد اثرية تتعاقب من الالف الرابع حتى الالف الاول قبل الميلاد وتضم عينات فخارية من عصر جمدة نصر ايضا .

د - تل الحريري - ماري :

يقع هذا التل على الجانب الشامي من نهر الفرات الاوسط وهو قريب من بلدة البوكمال الواقعة على الحدود السورية العراقية ، وقامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة الاستاذ بارو بالتنقيب فيه عام ١٩٣٣ وتوقف العمل فيه اثر الحرب العالمية

الثانية واستأنفت البعثة أعمالها في مطلع الخمسينات وماتزال مستمرة حتى يومنا هذا .

أبانت التنقيبات في منطقة القصر الذي اندثر في الألف الثاني قبل الميلاد ، أن القصر نفسه قد اقيم فوق نفس أساسات قصر اقدم منه يرقى الى عهد السلالات الاولى او عصر ما قبل الصارغوني ، بيد أن التنقيب لم يكشف عن وثائق كتابية يمكن أن تحدثنا عن طبيعة الدور الذي كانت تلعبه ماري في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه دويلات المدن السومرية في جنوب الرافدين .

هـ - تل خويرة :

يقع هذا التل بين تل ابيض ورأس العين وهو قريب من الحدود السورية التركية . وتقوم بالتنقيب فيه منذ ١٩٥٨ بعثة اثرية ألمانية برئاسة الاستاذ انطون مورتغارت ومن أبرز اكتشافاتها نذكر نماذج معابد وأوابد وتمائيل حجرية ترقى الى عصر السلالات الاولى في الرافدين .

النصف الثاني للألف الثالث ، او العهد الاكادي وعهد سلالة أور الثالثة

بقيت الشواهد الاثرية على العصر الاكادي وعصر سلالة أور الثالثة في القطر العربي السوري مقتصرة على بعض المكتشفات المعمارية والقليل من القطع الفنية والاستعمالية في عدد من تلال الجزيرة حتى عام ١٩٧٤ ، عندما عثرت البعثة الاثرية الإيطالية في تل مردوخ قرب سراقب على ارشيف الرقم المسمارية في قصر ملك تل مردوخ المعاصر للملك اكاد في الرافدين وفيما يلي نستعرض المواقع الاثرية التي كشفت أعمال التنقيب عن شواهد مادية على هذه الفترة .

أ - تل براك :

كشفت البعثة البريطانية السابقة الذكر عن قصر كبير يعود لعهد الملك الاكادي نارام سين .

ب - تل خويرة :

كشفت البعثة الألمانية الالفة الذكر عن معابد ومساكن ترقى الى العهد الاكادي بيد أن نموذج المعبد المكتشف في هذا الموقع يتفرد بخصائص تميزه عن المعابد الأكادية الرافدية ويتجلى ذلك في الرواق الامامي الذي يتقدم هيكل المعبد المستطيل .

ج - تل مردوخ :

تقوم بعثة أثرية برئاسة الاستاذ باولو ماتيه من جامعة روما بالتنقيب في تل مردوخ القريب من بلدة سراقب منذ عام ١٩٦٤ وكشفت أعمال البعثة عن معالم معمارية هامة ترقى الى العهد البابلي (النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) نتعرض لها في حينها . وعثرت في السنوات الاخيرة على جزء تمثال من حجر البازلت عليه كتابه أكادية كان من جملة ما تتضمنه اسم مدينة ايبلا التي جاء ذكرها كثيرا في النصوص الأكادية الرافدية . وكان هذا النص الوثيقة الكتابية الوحيدة التي كشفت عنها أعمال التنقيب آنذاك . ولقد دعى هذا الاكتشاف الى الاعتقاد بأن تل مردوخ هو مدينة ايبلا الشهيرة . وظلت البعثة تعيش في امل العثور على مزيد من الوثائق المكشوفة للتأكد من هوية هذه المدينة والتعرف على تاريخها وحضارتها في عصور ما قبل العهد البابلي ، وعندما وصلت أعمال التنقيب الأثري الى الطبقات التي تلي طبقة العهد البابلي خلال موسم ١٩٧٤ سعدت البعثة بالعثور على اربعين لوحة طينية كتابية (رقم مسمارية) أكدت القراءة الأولية لسطورها على انتمائها للعصر الأكادي . وكانت الضجة التي أحدثها هذا الاكتشاف اكبر عندما عثرت البعثة في موسم العام التالي (١٩٧٥) على حوالي اثني عشر ألف لوحة أخرى في حجرة مجاورة لقاعة عرش القصر الملكي .

وتعتبر هذه اللوحات أولى الوثائق المكتوبة في المناطق الداخلية من قطرنا في العهد الأكادي . ان المكان لا يتسع الا لسرد مقتضب للنتائج الباهرة لهذا الاكتشاف الذي قلب الصورة التاريخية للمناطق الداخلية للقطر العربي السوري في النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد رأسا على عقب . وبالرغم من أن قراءة اللوحات الكتابية لاتخرج عن نطاق رؤوس الأقلام الا أننا نستطيع أن نعرض بعض الأفكار الأولية .

أ - أكد محتوى النصوص الكتابية على هوية ايبلا في تل مردوخ بشكل قطعي ووضع حد للفرضيات السابقة التي كانت ترجع موقع ايبلا الى الشمال من حلب .

ب - أكدت آثار الدمار والحريق في بقايا القصر المكتشف على صحة ما جاء في الوثائق الرافدية التي تذكر ايبلا من جملة المدن والممالك التي دمرها الملك الأكادي نارام سين أثناء توسعه باتجاه البحر الكبير (البحر المتوسط) .

ج - خلافا لما جاء على لسان ملوك ماري (تل الحريري) أو ملوك أكاد واشور بأن ملوك ايبلا كانوا يدفعون الجزية لهم وكانوا بالتالي يخضعون لنفوذهم فقد

أبانت نصوص تل مردوخ أن هؤلاء الملوك كانوا يدفعون الجزية بدورهم الى ملوك ايبلا .

د - كانت ايبلا (تل مردوخ) مركزا مرموقا لصناعة النسيج الموشى بخيوط الذهب والفضة (البروكار الدمشقي) وكانت اكاد واشور من جملة الممالك التي تستورده .

هـ - تذكر النصوص المسمارية الرافدية أن ملوك الرافدين كانوا يجلبون الخشب من ايبلا ولقد أكدت نصوص تل مردوخ الحالية على أن كرسي عرش ماري (تل الحريري) كان يصنع في ايبلا ويستدل ذلك من وصل توريد مثل هذا الكرسي الى ملك ماري . كما عثرت البعثة في قاعة عرش قصر تل مردوخ على بقايا خشبية محروقة ومحفورة بأشكال حيوانية تزيينية لعلها كانت جزءا من قطعة اثاث منزلي .

و - كانت بعض اللوحات الكتابية المكتشفة في تل مردوخ عبارة عن تقارير مرسلة من قادة جيوش ملك ايبلا وتسرّد للملك تفاصيل الوقائع الحربية ونتائجها . ولقد تبين منها أن مملكة ايبلا قد مدت نفوذها العسكري والسياسي الى مناطق واسعة .

ز - كان للمرأة شأن كبير في حياة مملكة ايبلا السياسية والاجتماعية . ففي حين لا ياتي ذكر لزوجات ملوك الرافدين في النصوص التي يتحدثون فيها عن احوالهم نجد أن اسم الملكة يسبق ذكر اسم الملك في نصوص تل مردوخ ، وكذلك عرفتنا نصوص تل مردوخ لأول مرة على أسماء زوجات الملوك الاكاديين والاشوريين المعاصرين .

ح - تكمن المفاجأة الكبرى بالنسبة لهذا الاكتشاف في التعرف على اللغة المتداولة في المناطق الداخلية من قطرنا خلال النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد ، فخلافا للتكهنات التي كانت تفترض بأن اللغتين السومرية والاكادية كانتا سائدتين في بلاد الشام ايضا ، فقد أبانت نصوص تل مردوخ أن المفردات المستخدمة بعيدة عن الاكادية وقريبة من الكنعانية .

وتبرز أهمية هذه الحقيقة في أنها تؤكد على امتداد جذور الكنعانيين الى أكثر من الالف الثاني وإلى أبعد من الساحل السوري واللبناني والفلسطيني .

ط - كانت حركة التعليم مزدهرة في ايبلا ويستدل ذلك من الكتابات المدرسية وأسماء التلاميذ ومدرسيهم المسطرة في اللوحات المكتشفة . كذلك زدودتنا نصوص

تل مردوخ باول قاحوس يقابل المفردات السومرية بمعانيها الايبلائية المتداولة في ايبلا .

ما من شك ان نتائج الدراسة المقبلة لهذا الكنز الوثائقي الهائل ستلقى اضاءا باهرة على تاريخ قطرنا في تلك الحقبة المظلمة .

وفيما يتعلق بعصر سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالث فان التنقيبات الاثرية في الاونة الاخيرة كشفت عن المزيد من شواهدا المادية ولكنها ما تزال بخيلة جدا بالشواهد الكتابية التي قد تمكنا من تأكيد او نفي صحة المعلومات الواردة في النصوص الكتابية الرافدية . وتشير الشواهد المادية المكتشفة في تل الحريري (ماري) وفي بعض تلال منطقة غمر السد مثل تل العبد وتل ممباقة وتل حوبة وتل سلنكية وتل السويحات وفي بعض المواقع المنتشرة في سهل العمق وفي تل مدينة حماه ان نفوذ سلالة اور الثالثة قد امتد بعيدا نحو الغرب . بيد ان هذه الشواهد الحضارية لا تكفي لرسم نوعية العلاقة السياسية والحضارية رسميا دقيقا وواضحا بين هذه المواقع ومملكة اور .

النصف الاول للالف الثاني قبل الميلاد او العهد البابلي القديم

يعتبر الالف الثاني قبل الميلاد اقل غموضا بكثير من الالف السابق له ، فالتنقيبات الاثرية الجارية في مواقع متفرقة من ارجاء قطرنا قد كشفت عن مساحات كبيرة نسبيا من السويات الاثرية التي كانت تغيب في باطنها معالم معمارية هامة وشواهد فنية متنوعة ووثائق كتابية وافرة . ومن أبرز هذه المواقع نذكر :

١ - تل الحريري - ماري

كشفت البعثة الفرنسية انفة الذكر عن اكبر قصر ملكي في العصور القديمة وكان هذا القصر يتجدد منذ عصر السلالات الاولى حتى عهد الملك زيميرليم ، اخر ملوك مدينة ماري الذي عاصر الملك البابلي حمورابي (منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد) .

ويتميز هذا القصر بقاعة العرش الفخمة وبباحاته الرحبة وغرفته وصالاته التي بلغت الثلاثمائة . والى جانب التماثيل الحجرية العديدة واللقى الكثيرة من الادوات والاواني الفخارية والحجرية والمعدنية المختلفة ، عثرت البعثة على ارضيف ملكي من الوثائق المكتوبة بالسومارية على الرقم الطينية التي تخطى عددها خمسة وعشرين الف رقيم .

لقد عرفتنا محتويات هذا الكنز الوثائقي على مختلف جوانب الحياة اليومية والسياسية واجتماعية واقتصادية في مملكة ماري وفي الممالك الصغرى والكبرى المجاورة لها خلال النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ، كما أصبحنا نعرف الكثير عن مملكة حلب أو يحاض وعدد من الممالك الاخرى مثل ترقا (تل عشار) وتولول (تل البيعة قرب الرقة) والمشرقة (قطنة قرب حمص) وأيمار (مسكنة على الفرات) .

وتفيدنا وثائق ماري الكتابية وشواهدا الحضارية انه رغم الاستقلال الذاتي الذي كان يتمتع به ملوك هذه المدينة الا أن حضارتهم وثقافتهم كانت رافدية ، فلفتهم هي الاكادية والسومرية وفنونهم التشكيلية مشابهة للفنون الرافدية المعاصرة .

٢ - تل مردوخ - ايبلا

كشفت البعثة الايطالية التي سبق ذكرها ، عن معالم قصر ومعبدتين واحدى البوابات الرئيسية في سور المدينة ، فضلا عن حوضين حجريين تتمتع وجوههما بمشاهد دينية منحوتة . ويستدل من الكتابة التي تزين ظهر جزء من تمال بالزلي لرجل أن التمال المذكور هو مقدمة لمعبد الربة عشتار في ايبلا . بيد أن التنقيبات في هذه السوية لم تكشف حتى الان عن شواهد كتابية قد تزودنا بمعلومات عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ايبلا خلال النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد .

٣ - تل عشنانة - الااخ :

يقع هذا التل على نهر العاصي في سهل العمق (منطقة انطاكية - لواء اسكندرون حاليا) وقامت بالتنقيب فيه من عام ١٩٣٦ حتى ١٩٤٩ بعثة اثرية بريطانية برئاسة ووللي وكشفت عن سبع عشرة طبقة اثرية تمتد من الالف الرابع حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وعرفتنا المكتشفات على مملكة الااخ التي كانت قائمة في هذا المكان . وفيما يتعلق بالنصف الاول للالف الثاني قبل الميلاد قد زدودنا نتائج التنقيب في هذا التل بوثق كتابية هامة وبمؤذج معبد وقصر يرقى الى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد ووصلت ابعاد القصر من عهد الملك يارليم الى ١٥ x ٩ مترا ويدكرنا مخطط القصر بالقصر الملكي في كنوسوس في جزيرة كريت .

كانت الااخ عاصمة لمملكة موكن التي تضم منطقة سهل العمق واول ملك تعرفنا عليه النصوص المسمارية التي عثرت عليها البعثة البريطانية هو يارليم

الذي كان تابعا سياسيا للملك حلب . ويبدو أن الإلاخ قد حظيت بمكانة هامة لوقوعها على طرق التجارة بين حلب والاناضول والبحر المتوسط . وتعتبر النصوص السمارية المكتشفة في الإلاخ المصدر الرئيسي الثاني بعد نصوص تل الحيري لمعلوماتنا عن مملكة حلب - يحاض .

النصف الثاني للالف الثاني قبل الميلاد

لعل هذه الفترة من أفضل الفترات التاريخية الموثقة بالشواهد الحضارية والكتابية الوافرة . ولقد شهد القطر العربي السوري خلالها أحداثا مثيرة حولته إلى حلبة صراع بين الدول الكبيرة المجاورة له كالصراع الحثي - المصري والحثي - الآشوري ، كما عرف قطرنا أعنف مأساة حضارية وسياسية تجلت في غزو شعوب البحر للبلاد في حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد . ولقد سبب هذا الغزو دمار ونهاية معظم الممالك والأمصار التي ازدهرت على الساحل وفي المناطق الداخلية مثل أوغاريت والإلاخ وقطنة وقادش .

ومن أبرز المواقع التي زودتنا أعمال التنقيب الأثري الجارية فيها بشواهد مادية وكتابية على هذه الفترة نذكر :

١ - رأس الشمرة - أوغاريت :

يقع تل رأس الشمرة على بعد حوالي ٧ كيلو مترات إلى الشمال من اللاذقية ، وتقوم بالتنقيب الأثري فيه منذ عام ١٩٢٩ بعثة أثرية فرنسية برئاسة الاستاذ كلود شيفر (حاليا برئاسة جان مارغرون) . ولقد حققت هذه البعثة اكتشافات أذهلت الأوساط الأثرية والتاريخية في العالم .

ومن أبرز تلك المكتشفات نذكر : الأبجدية الأوغاريتية التي تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ البشرية (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) بالإضافة إلى العديد من الرقم السمارية التي تدون الأحداث السياسية وتسرد الحياة اليومية وتسلط الأضواء على الممارسة الدينية وتسجل المعاملات الاقتصادية والعقود التجارية . كذلك فقد كشفت أعمال التنقيب عن القص الملكي الكبير البالغة مساحته حوالي الهكتار وعن عدة معابد دينية بالإضافة إلى أحياء بكاملها . وفي ضوء المكتشفات المتنوعة أصبحنا نعرف أن مدينة أوغاريت كانت عاصمة لمملكة صغيرة على الساحل ولقد عمها الازدهار الاقتصادي بفضل علاقاتها التجارية مع الجزر الإيجية وبلاد

الاناضول ومع مصر وبلاد الرافدين وكانت غالبية اهاليها من الساميين الغربيين الذين نعرفهم باسم الكنعانيين .

هذا وتعتبر النصوص الكتابية المكتشفة في رأس الشمرة من جملة المصادر الرئيسية التي نستقي منها معلوماتنا عن مملكة حلب - يحاض المعاصرة لها .

٢ - تل النبي مند - قادش القديمة

يقع هذا التل على بعد حوالي عشرين كيلو مترا الى الجنوب الغربي من حمص وهو يطل على نهر العاصي بالقرب من بحيرة قطينة . ولقد قامت بعثة أثرية فرنسية برئاسة الاستاذ بيزار بالتنقيب فيه خلال عام ١٩٢١ وكشفت عن منشآت معمارية ولقى أثرية ترقى الى النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ، كما عثرت البعثة على رقم مسمارية اكدت محتوياتها على أن هذا التل يضم في ثناياه مدينة قادش التي ذكرتها النصوص الحثية والمصرية القديمة في صدد المعركة العسكرية الفاصلة بين المصريين والحثيين .

وكان من جملة المكتشفات العثور على شاهدة حجرية منحوتة للملك المصري سيت الاول .

وعلى الرغم من الاهمية البالغة التي يتمتع بها هذا التل فقد توقف التنقيب فيه بعد عام ١٩٢١ وبقي الموقع في طي النسيان الى أن تقدمت في عام ١٩٧٥ بعثة أثرية بريطانية لاستئناف التنقيب في هذا المكان الذي يبشر بالعطاء الاثري والفيض التاريخي^{١٥}

٣ - تل عطشانة - الااخ

كشفت البعثة الاثرية البريطانية التي سبق ذكرها عن طبقة أثرية ترجع الى النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد . ولقد بينت النتائج آنذاك أن الااخ قد احتلت مكانة بارزة خلال هذه الحقبة . ومن ابرز المكتشفات نذكر : القصر الملكي الذي بناه الملك تقيميا في منتصف القرن الخامس عشر وتمثال الملك ادريمي ثم العديد من الرقم المسمارية ذات الاهمية التاريخية البالغة .

٤ - تل المشرفة (قطنة)

يقع هذا التل على بعد حوالي ١٨ كيلو مترا الى الشمال الشرقي من حمص

وقامت بعثة أثرية فرنسية برئاسة الكونت دو بويسون بالتنقيب فيه خلال سنوات ١٩٢٤ و ١٩٢٧ وكشفت عن سور مدينة من الألف الثاني قبل الميلاد كما أظهرت معالم معبد الربة الرافدية نينكال وعثرت على عدد قليل من الرقم المسمارية التي أكدت محتوياتها على أن هذا التل يحتضن مدينة قطنة التي ذكرتها النصوص المسمارية الرافدية والمصرية والحثية .

وبالرغم من النتائج الطيبة التي خرجت بها البعثة في هذا الموقع إلا أن التنقيب فيه قد توقف منذ ١٩٢٧ ونحن لانزال نستغرب تردد الاثريين لاستئناف التنقيب في عاصمة مملكة شغلت مكانة مرموقة في أحداث العالم القديم وبخاصة خلال النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد .

النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد

لقد اندثرت معظم الممالك المذكورة آنفا في أعقاب غزو شعوب البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ولا يزال قطرنا يعاني من صمت المصادر التاريخية وخلو الطبقات الأثرية من الدلائل والعينات المادية التي قد تمكننا من رسم الصورة التاريخية والحضارية التي آل إليها القطر بعد ذلك التاريخ الحاسم ، فشعوب البحر لم يخلفوا لنا في المواقع التي جرى التنقيب فيها إلا طبقات من الرماد المفلح باتربة القرون الطويلة .

بيد أن ممالك جديدة تكونت وازدهرت منذ القرن التاسع قبل الميلاد ولقد أعانتنا نتائج التنقيب في المواقع التي سنتحدث عنها على التعرف على بعض أوجه التاريخ السياسي والحضاري لقطرنا بعد ذلك الصمت الذي دام لعدة قرون .

لقد خلف الفينيقيون أجدادهم الكنعانيين في الساحل واستطاع الآراميون القادمون من الجزيرة العربية تأسيس ممالك عديدة في المناطق الداخلية من قطرنا وفي بعض مناطق الجزيرة ، وانبعثت أمارات حثية من جديد في المناطق الشمالية من القطر .

١ - تل رفعت

يقع هذا التل على بعد حوالي ٣٥ كم إلى الشمال من حلب وقامت بالتنقيب فيه عام ١٩٦٠ بعثة أثرية بريطانية وأكدت نتائج التنقيب على أن هذا الموقع يغيب

في باطنه مدينة ارباد عاصمة مملكة بيت عجوزي الارامية كما عرفتنا الشاهدة الحجرية التي جلبها تجار الاثار من قرية السفيرة في جنوب حلب والمشفوعة بكتابة ارامية قديمة ، على معاهدة سياسية عقدها ملك ارباد في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد مع الملك بارغاياه .

وتعتبر محتويات هذه المعاهدة مصدرا هاما لتاريخ القطر في عهد الملك تيفلات فيلصر الثالث .

٢ - تل حماء

عرفتنا التنقيبات الدانمركية التي جرت في حماء على شواهد مادية وكتابية تسلط الاضواء على المكانة التي شغلها حماء في ظل الامارات الحثية الجديدة والدور البارز الذي لعبته المدينة عندما أصبحت أحد أكبر الممالك الارامية منذ القرن التاسع الى أن تحولت الى ولاية اشورية سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ، وتجدر الإشارة الى أن اسم مدينة حماء معروف في الوثائق الكتابية منذ الألف الثاني قبل الميلاد .

٣ - تل حلف - غوزانة

يقع هذا التل عند منابع نهر الخابور ويبعد حوالي خمسة كيلو مترات الى الجنوب الغربي من بلدة رأس العين . وقامت بالتنقيب فيه بعثة أثرية ألمانية برئاسة ماكس فون أوبنهايم . وتعتبر هذه العملية أقدم عملية تنقيب أثري في القطر .

لقد أسفرت التنقيبات عن كشف قصر فخم من العهد الارامي ، وعرفتنا المكتشفات على اسم الملك كباره كما أكدت الكتابات المكتشفة على أن تل حلف ماهو الا مدينة غوزانة التي كانت مركزا لولاية اشورية في سنة ٨٠٨ قبل الميلاد . بيد أن أعمال التنقيب لم تكشف الا عن القليل من الشواهد الاشورية .

قللت البعثة الاثرية الألمانية معظم التماثيل والمنحوتات الحجرية الضخمة التي كانت تزين القصر الملكي الى برلين ، وخصصت لها قاعة كبرى في متحف الدولة ببرلين ، بيد أن قنابل الحرب العالمية الثانية لم ترحم المباني الثقافية وشاءت أحد القنابل التي سقطت في قلب القاعة أن تحول التماثيل البازلتية الضخمة الى شظايا صغيرة متناثرة . ولحسن الحظ أن البعثة نفسها قد تركت

في حلب قوالب جصية لكافة التماثيل التي نقلتها الى برلين ، وبفضل هذه القوالب تمكنت المديرية العامة للآثار والمتاحف من صب التماثيل لتزين بها مدخل متحف حلب الجديد .

٤ - اسلان طاش :

يقع هذا التل الى الشرق من طرابلس ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة تورود دانفان بالتنقيب فيه عام ١٩٢٨ ، وأسفرت النتائج عن كشف مدينة مشورة وعن قصر للملك الاشوري تغلات بلصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ قبل الميلاد) وعن معبد تابع للقصر نفسه ، كما اكدت التنقيبات على أن هذا التل يضم مدينة حداتو القديمة . ومن جملة المكتشفات نذكر بقايا زخرفية مصنوعة من مادة العاج ومنفذة بأسلوب فينيقي .

٥ - تل برسبب :

يقع هذا التل على الشاطئ الايسر من نهر الفرات والى الجنوب من جرابلس ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة كل من تورود دانفان ودونان بالتنقيب فيه عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣١ - وكشفت اعمال التنقيب عن قصر اشوري يرجع تاريخه الى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، وعثرت البعثة فيه على رسوم جدارية ملونة تمثل مشاهد ملكية اشورية وعلى انصاب منقوشة بكتابات حثية هيروغليفية .

كان تل برسبب في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد عاصمة لمملكة بيت عديني الارامية ثم اصبحت في ظل الحكم الاشوري منذ ان فتحها الملك شلمانصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) . ولقد عثرت البعثة على نصب حجري باسم الملك اسرحدون (٧٨٢ - ٧٧٢) وعلى نصب اخر باسم والي شلمانصر الرابع (٧٨٢ - ٧٧٢ ق.م) .

لقد شبهنا في مطلع مقالتنا هذه نشوء الصورة التاريخية والحضارية لقطرنا بلوحة فسيفسائية ونود ان نختم هذه العرض بالاشارة الى أن مدارس البحث التاريخي والحضاري كانت في الماضي تكتفي بابطال الاحداث السياسية او العسكرية او الدينية للء الصورة التاريخية والحضارية لمنطقة ما .

فنحن في اكثر الاحيان لا نعرف الا تاريخ الملوك والقادة والولاة والحكام ولكننا لا نعرف الا النذر اليسير عن تاريخ الرعية .

كما اننا احيانا لا نعرف شيئا عن مظاهر الحياة اليومية للعامة من الناس أو تركيبهم الاجتماعي أو طرق معيشتهم أو ماهية مصادر رزقهم .

ان صورة من هذا النوع تشبه الى حد كبير مشهد الفسفساء الذي يمثل الامبراطور البيزنطي جوستينيان والامبراطورة تيودورا امام خلفية ذهبية خرساء .
اننا نريد صورة يتقدم فيها الخاصة والعامة على السواء امام خلفية زاهية أو عاتمة للبيئة التي عاشوا فيها ولمظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي خلقتها فعاليتهم .

بيد ان التنقيب الاثري في قطرنا وفي اقطار اخرى من العالم لم ينج من مثل هذه الاساليب القديمة في البحث العلمي ونحن لا نزال نملك امثلة على منقبين اثريين اكتفوا بالكشف عن القصر والمعبد وتركوا المنازل والبيوت والاكواخ والشوارع والازقة مغمية.

